

بنية الفراغات في الخطاب وتفعيل نشاط التلقي

يناقش "أيزر" مفهوم الفراغ* في ضوء دراسته لموضوع التفاعل والتواصل في العمل الأدبي، ويرى أنه لكي تتجح عملية التواصل وينتهي القارئ إلى تشكيل المعنى النصي الذي غالباً ما يزعزع تجربته المكتسبة، ويعطّل توجيهاته الخاصة، فلا بد للنص "أن يقود خطى القارئ ويضبط مسيرته إلى حد ما" (1)؛ أي ينبغي على النص أن ينطوي على مجموعة من العناصر أو العوامل التي تسمح له بمراقبة سيرورة التفاعل التواصلية القائم بينه وبين المتلقي. غير أن هذه العناصر الموجّهة «لا يمكن أن تمتلك أي محتوى محدد مسبقاً.. و لا يمكن تصورها كقيم إيجابية محددة، ومستقلة عن سيرورة التواصل» (2). ويقصد بهذه العناصر تلك الفراغات التي تتخلل صفحات النص الأدبي من خلال تساؤلات القارئ أثناء القراءة، وتلك الأجزاء الغامضة التي تثير التوتر والقلق في نفسيته، وذلك الصمت الذي يحرضه على فعل البناء وتشكيل المعنى.

ويوضح أيزر هذه الفكرة من خلال "فرجينيا وولف" (Virginia Wolf) وتعليقها حول "جون أوستين" (J. Austin) ويقول: «هي سيدة العاطفة الأكثر عمقاً مما يبدو في الظاهر. إنها تحتاً على إضافة ما ليس موجوداً هناك، وما تقدمه هو شيء تافه فيما يبدو. ولكنه يتكون من شيء يكبر في ذهن القارئ، ويضفي على المشاهد التي تبدو تافهة شكل الحياة الأكثر استمراراً. ويكون التركيز دائماً على الشخصية الحكائية... فدوران والتواءات الحوار تشغلنا بحالة من التشوق. إن انتباهنا يتوزع بين لحظة الحاضر والمستقبل... وهنا بالفعل، أي في هذه القصة اللامكتملة والمنحطة على العموم، تكمن جميع عناصر عظمة جون أوستين» (3).

* ترجم هذا المصطلح في النقد العربي بعدة ترجمات، نذكر منها: الفجوات، البياضات، الإبهام، اللاتحديد، التفككات، الغموض، الصمت، الثغرات... ونشير إلى أننا سنعمد لفظ "الفراغ" في هذه الدراسة، لكونها الترجمة الشائعة في الساحة النقدية، وأيضاً لالتزامنا بما جاء في كتاب أيزر "فعل القراءة" في الترجمتين معاً، فُوْظِفَ مصطلح الفراغ في ترجمة عبد الوهاب علوب، وكذا في الترجمة المغربية مع حميد لحداني، والجلالي الكدية. على الرغم من أن هذه الأخيرة لم تترجم كل الكتاب، بل اكتفت ببعض فصوله فقط.

1 - روبرت هولب، نظرية التلقي، مقدمة نقدية، تر: عز الدين إسماعيل، ص 146.

2 - W. Iser, l'acte de lecture, p 297.

3 - فولفغانغ إيزر، فعل القراءة، ص: 100

والشيء المفقود في هذه المشاهد، والتي تبدو غير ذات أهمية في ظاهرها هي التي تمثل الفراغات*⁴، إنها المفتاح الذي ينشط القارئ في استخدام فكره، وهي كفراغ "لا شيء" في حد ذاتها، وباعتبارها "لا شيء" تُعدّ قوة دفع حيوية لبدء التواصل، وذلك عندما يشارك القارئ في ملء هذه الفجوات وسدها، وهنا يقوم التفاعل الديناميكي بين النص القارئ والقارئ والنص.

وتظهر المشاهد غير المهمة . التي تتحدث عنها فيرجينيا وولف . عميقة بصورة مذهشة، إذ تتولد في مخيلة القارئ الشيء غير المذكور والعميق، وما دُكر يتوسع لكي يأخذ دلالة أكبر. إن التواصل بين القارئ والنص « عملية لا يحركها ولا ينظمها سنن معطى، بل تفاعل مقيد وموسع بطريقة متبادلة بين ما هو صريح وضمني بين الكشف والإخفاء، وإن ما هو خفي يحث القارئ على الفعل، ولكن هذا الفعل يكون مراقباً أيضاً بما هو مكشوف؛ ويتغير ما هو صريح بدوره عندما يبرز إلى الضوء » (15).

ويفهم من هنا أن الفراغات* هي تلك الصلات المفقودة في الخطاب، وهذه التفككات والانفصالات (les disjonctions) التي يتضمنها النص على مستوى السرد أو الحدث، والإضمات (les ellipses) التي تعرفها المكونات النصية، وهي تثير القارئ وتحدث التوتر الذي يحفز على ملئها بواسطة التخيل والتمثيل.

وتتمظهر الفجوات والفراغات على مستوى الخطاب عندما ينكسر مسار الأحداث بشكل فجائي، وقد تستمر في اتجاهات غير متوقعة. فمن أجزاء السرد ما يرتكز على شخصية معينة، ثم يستمر بالتقديم الفجائي لشخصيات جديدة. وهذه التغيرات المفاجئة غالباً ما تتميز بفصول جديدة. كما أنه في لحظة قراءة

* يقول روبرت هولب في دراسته لبنية الفراغ عند إيزر: « ليس من المستطاع على نحو مماثل العثور على تحديد كاف لهذا المصطلح في كتاب فعل القراءة » (روبرت هولب نظرية التلقي، ص 147).

¹ - فولغانغ إيزر، فعل القراءة، ص: 100

* يرى روبرت هولب أن " بنية الفراغ شغلت موضعاً رئيسياً في تفكير إيزر منذ مقالته عن " بنية الجاذبية "، وقد عرفت هذه البنية كما عُرف " موضع الإبهام " عند إنجاردن بأنها " المنطقة المشاع للإبهام "، والواقعة بين وجهات النظر المخططة فإن ما يشكل الفراغ حقاً لم يوضح قط، ومع ذلك ففي وسع المرء أن يتخيل أن غياب التعريف كان متعمداً من جانب إيزر، لأنه في رده على نقد وجه إلى مقولة الإبهام المجهلة عنده، يعلّق بقوله على النحو التالي: " إنني أف مع الراي القائل إن الإبهام مقولة مجهلة إلى أبعد الحدود، إنه يمثل - على أحسن الفروض - قضية كلية في نظرية الاتصال، ومع ذلك فإن تعريفه ربما انصرف به كونه قضية كلية تحدد عملية الاتصال ". وعلى نحو جلي يصدق الشيء نفسه بالنسبة إلى وحدة الاتصال التي تحكم الإبهام، وهي الفجوة أو الفراغ " (يراجع: روبرت هولب، نظرية التلقي، ص 147). لكن، تجدر الإشارة هنا - بالنظر إلى النقد الذي وضعه الناقد هولب - إلى أن كتاب " فعل القراءة " في فصله الأخير المعنون بـ " التفاعل بين النص والقارئ "، قد ناقش فيه إيزر مفهوم الفراغات، ووضع مبحثين لتوضيح ذلك وهما: اللاتماثل بين النص والقارئ، و " كيف تبدأ عملية التكوين ". لكن والمتفق عليه مع رأي الناقد هولب هو عدم تحديد إيزر هذه الفراغات في تعريف دقيق واضح يسهل الفهم على القارئ المبتدئ خاصة، بل نستنتج من خلال تتبع مناقشته للموضوع وعودته إلى مفهوم اللاتحديد عند إنجاردن.

لا نجد إلا مقاطع الرؤى النصية ماثلة أمام وجهة نظر القارئ، وصلة كل مقطع منها بالآخر غالباً ما تكون معطّلة. ويزداد عدد الفراغات نتيجة لتشعب كل وجهات النظر النصية؛ لذا فوجهة نظر السارد غالباً ما تنقسم إلى وجهة نظر المؤلف الضمني في مواجهة وجه نظر المؤلف الحقيقي بوصفه سارداً؛ وقد توضع وجهة نظر البطل في مواجهة رؤية الشخصيات الثانوية؛ ورؤية القارئ المفترض بين الموقف الصريح الذي ينسب له والتوجه الضمني الذي يتحتم عليه أن يتخذه من هذا الموقف⁽⁶⁾.

استشهد أيزر في دراسته ومناقشته بنية الفراغات* بعدة نماذج وأنواع مختلفة من الكتابة الروائية منها؛ الرواية التعليمية والقصص المسلسلة والرواية الحوارية. يستند في الرواية التعليمية إلى رواية "لوس وجاين" (Loss and Gain) للكاردينال نيومان (Cardinal Newman)، وهدف الرواية دعائي وتعليمي، وبالتالي يقل عدد المساحات الخالية والفراغات، وموضوعها معطى ومحدد بشكل واضح، وهو الحاجة للتحوّل إلى الكاثوليكية، في ضوء مشكلات الحياة في العالم الحديث. وبذلك فإن المشكلة هي مجرد تأمين الاتصال، وهو ما يعني ضرورة ربط توقعات جمهور القراء بميولهم بالمضامين ربطاً سلساً. وبمعنى آخر، فإن استراتيجيات النص يجب أن تُؤمّن عملية التواصل بشكل جيد، والتي ستمتد إلى مخزون خبرة القارئ ومرجعياته السياقية، والتقنيات الموظفة لمثل تلك الأغراض التعليمية قد تسهم بقسط وافر في إعادة بناء تاريخ الأنماط الذوقية والمشاعر والمعايير وميول جمهور القراء⁽⁷⁾.

ويصل هذا الأخير من دراسته للرواية التعليمية، وكذا الروايات الواقعية الاجتماعية أن إستراتيجيتها لا تسمح بمشاركة القارئ إلا بقدر قليل بحيث على النص أن يقود القارئ إلى الموقف الصحيح، وبذلك، فإن كل ما عليه إلا أن يبيّن الموقف الموضح له. والكاتب في مثل هذه الروايات لا يخرج عن معايير قرائه، وهو يحقق سيطرته بتقييد دلالات فراغاتها بالإجابة بالإيجاب أو بالسلب. والفراغات باعتبارها الصلات المفقودة بين مقاطع الرؤية، لا تسمح إلا بهذين الاحتمالين، ورؤية البطل في هذه الأعمال تنتظم بطريقة لا تكون أمام القارئ إلا الاختيار البسيط بين القبول والرفض في ربطها بسائر الرؤى.

وإذا كانت الفراغات تثير النشاط التخيلي في القارئ بتعطيلها للقدرة على الربط، فهذا يُستغل لأغراض تجارية. والحضور المكثف لهذه الفجوات في النصوص بالضرورة تضمن النجاح والترويج لهذا

⁶ - يراجع: فولفجانج أيسر، فعل القراءة، تر: عبد الوهاب علوب، ص: 198
* يترجم مصطلح الفراغات بـ "الشواغر" (يراجع: روبرت هولب، نظرية الاستقبال، تر: عبد الجليل جواد، ص 160).

⁷ - يراجع: فولفجانج أيسر، فعل القراءة، ص: 193

الصنف من الروايات. وأحسن مثال على هذه التقنية "القصة المسلسلة" وعندما تنشر في المجلات، وعلى صفحات الجرائد والصحف، تجذب جمهوراً إليها (وبالتالي الترويج للمجلة). وقد اعتمد الروائيون الواقعيون هذه الطريقة في القرن التاسع عشر، فكتب "تشارلز ديكنز" (Charles Dickens) الكثير من رواياته في صورة حلقات أسبوعية، وكان المؤلف يحاول استكشاف تصورات القراء عن بقية القصة لاستكمالها.

وقد اكتسب قراء القرن التاسع عشر خبرة كبيرة في هذا السياق، وتوصلوا إلى قراءة الرواية في أجزاء أفضل من قراءتها في شكل كتاب. وغالباً «ما تميل هذه القصص إلى التفاهة، لأنها لا بد أن تخاطب جمهوراً عريضاً لكي تحقق النجاح تجارياً، وبالتالي فهي لا تجرؤ على الإفراط في انتهاك رصيد المعايير والقيم السائدة لدى جمهورها..»⁽⁸⁾، بحيث بقراءتنا لمثل هذه النصوص في حلقات وأجزاء متقطعة بالضرورة سوف تستحوذ على اهتمامنا، إذ كثيراً ما يقطع فيها مسار الحدث عند نقطة تثير التساؤل، وتبعث التشويق في القارئ، حيث يرغب في معرفة ما سوف يأتي. وخلق هذه الإثارة هي النتيجة الأساسية لتقنية القطع. أما إذا قرئت في شكل كتاب، فإن إمكانية تركها جانباً تظل قائمة.

ويشير "أيزر" في هذا الصدد إلى تقنيات القطع الكثيرة، ويرى أن القطع المفاجئ على شخوص جديدة، أو على حبكة مختلفة من الطرق الشائعة لتكثيف النشاط التخيلي لدى القارئ الذي يعمل على البحث عن الصلات بين القصة التي أُلّفها وبين المواقف الجديدة التي يصعب التكهّن بها، فيواجه عدداً كبيراً من الاحتمالات، ويعتمد إلى بلورة الحلقات المفقودة. وتدفع هذه الفراغات القارئ لبث الحياة في القصة نفسها، والتعايش مع شخصياتها. وبهذا تنتج القصة المسلسلة نوعاً خاصاً من القراءة، وتعتبر سمة القطع فيها غرضاً استراتيجياً، ويضطر القارئ أمام هذه الوقفات المفروضة والمتعمدة، إلى اللجوء والعودة إلى التخيل وإعمال قدراته الإدراكية من أجل ملء هذه الفراغات.

ويعطي هذا الباحث مثلاً ثالثاً يختلف تماماً عما سبق، حيث يعود إلى روايات "إيفي كومبتون بورنيت" (Ivy Compton Burnett)، ويرى أنه لم تكن الفراغات في رواياتها مقيدة كما في الرواية التعليمية، ولم تستغل تجارياً كما في القصة المسلسلة، فكل رواياتها تتألف من حوار لا ينقطع بين الشخصيات، إلا أن هذا الحوار يذهب إلى ما هو أبعد من توقعاتنا العادية عن الحوار... والشخصيات المتحاوره تنشأ جميعاً من خلفية واحدة، وبالتالي فالتواصل بينها يحكمه قانون واحد. كما أنها تقي بشرط

⁸ - يراجع: فولفجانج أيسر، فعل القراءة، ص: 194

حيوي آخر من شروط أفعال الكلام الناجحة؛ فتُوجّه أسئلة لبعضها البعض لكي تضمن أنها فهمت ما يقال... ومع ذلك فالمحصلة فشل متواصل، بل كارثة. ولا تساعد أفعال الكلام على اختلافها على فهم الحقائق والمقاصد، بل تكشف المزيد من الكوامن الناتجة عن كل عبارة... وكلمات كل متكلم تترك شيئاً مفتوحاً؛ ويحاول الطرف الآخر أن يملأ الفراغ بكلمات من عنده، وهو ما يترك بدوره مزيداً من الفراغات يكون على الطرف الآخر أن يملأها أيضاً⁽⁹⁾، وبالتالي تعمل الفراغات ضد توقعاتنا العادية للحوار طالما أن القطة المحورية ليست ما يقال، بل ما لم يتم قوله.

هكذا رأينا من خلال النماذج الروائية كيف يمكن توظيف الفراغات في النص الأدبي لأغراض دعائية وتجارية وجمالية، فالرواية التعليمية التي تحدّ منها لكي تنقل وجهة نظر ما في حين أن القصة المسلسلة تزيد وتضاعف من توظيفها من أجل حث فضول زائد. أما الرواية الحديثة فتجعلها موضوعاً من أجل مواجهة القارئ بتصوراته وتأويلاته الخاصة، وذلك «بخرق النسيج الموحد والمتكامل للعمل الأدبي، وخرق الوحدة العضوية للمادة التي يتطلبها قانون اعتيادي، وكذلك في توحيد أكثر العناصر اختلافاً عن بعضها، وعدم الانسجام فيما بينها..»⁽¹⁰⁾.

ويرى "أيزر" أن الذي يهمنا ليس هذا التباين في توظيف الفراغات، بل البنية التي تقوم عليها، إذ بتعطيل تماسك النص تتحوّل الفراغات تلقائياً إلى قوة دفع لخيال القارئ تجعله يدرك هذا «الصمت في الأجزاء التي أغفل المؤلف تفصيلها عن عمد... حتى إنها لا معنى لها إلا في أماكنها من الموضوع الذي تكشف عنه القراءة... لا يصادفها المرء في لحظة محددة من قراءته، فهي في كل مكان ولا مكان لها..»⁽¹¹⁾. وبهذا فهي تلعب دوراً أساسياً في تفعيل هذه العلاقة اللاتماثلية بين الطرفين، إذ «إن الفجوة هي عدم التوافق بين النص والقارئ وهي التي تحقق الاتصال في عملية القراءة..»⁽¹²⁾، وبالتالي المساهمة في إنتاج العمل الأدبي، وتحقيق استمرارية وجوده.

⁹ - فولفجانج أيسر، فعل القراءة، ص 196.

¹⁰ - ميخائيل باختين، شعرية دوستوفيسكي، تر: جميل نصيف التكريتي، دار توبقال، الطبعة الأولى، المغرب، 1986، ص

21.

¹¹ - سارتر، ما الأدب؟، ص 53.

¹² - نورثروب فراي، المعنى الأدبي من الظاهرية إلى التفكيكية، تر: يوثيل يوسف عزيز، دار المأمون، بغداد 1990، ص 46.

* تجدر الإشارة هنا إلى أن الباحث "طليمات عبد العزيز" يفهم طاقة النفي هذه التي ينطوي عليها النص، باعتبارها رفضاً لبعض ما يقدمه النص كحقائق أو معارف أو أفكار، وهو الشيء الذي يجعل في نظره العلاقة غير المتناسبة تقوم بين النص والقارئ. (يراجع: عبد العزيز طليمات، الوقع الجمالي وآليات إنتاج الوقع عند وولفغانغ أيزر، ص ص 63، 68).

لكن الأمر غير ذلك، فالنص هو الذي ينفي العناصر المألوفة في وعي القارئ.

* وهو المصطلح الذي يستعمله المترجم في كتابه "نظرية التلقي" حيث يقول: « غالباً ما يصير القراء على وعي في عملية القراءة بمعايير النظام الاجتماعي الذي يعيشون فيه، ويقوم معظم الأدب بوظيفة وضع هذه المعايير موضع المراجعة. ومن خلال ملء الفراغات يكتسب القارئ منظوراً تبدو معه المعايير التي كانت مقبولة من قبل عتيقة وغير صالحة، وعندما يحدث هذا يقع السلب، وينشأ فراغ حيوي على المحور التزامني لعملية القراءة » (يراجع: روبرت هولب، نظرية التلقي، ص 148).